مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

الشِّيعَة الزيديَّة وأشرافُ مكةَ الحَسنَيين

تأليف:
ريتشارد تي مورتيل

ترجمة:
عبد الكريم مُحَمَّد الوظّاف

2024

www.mominoun.com

- **ترجمة**
- **قسم الدراسات الدينية**
- 30 يوليوز 2024

جميع الحقوق محفوظة © 2024

الشِّيعَة الزيديَّةِ وأشرافُ مكةَ الحَسنيين

تأليف: **ريتشارد تي مورتيل**
ترجمة: **عبد الكريم مُحَمَّد الوظّاف**

مقدمة المترجم

صدرت هذه المقالة عن مجلة المجلة الدولية لدراسات الشرق الأوسط *International Journal of Middle East Studies*، المجلد 19، العدد الرابع، من الصفحة 455-472. والصادرة في شهر نوفمبر (تشرين الثاني) عام 1987م عن دار مطبوعات جامعة كامبردج Cambridge University Press.

أما الأستاذ الدكتور ريتشارد تي مورتيل، فهو حاصل على دكتوراه في التأريخ الإسلاميّ. ومهتم بتأريخ الجزيرة العربية وآثارها وتراثها. ويُقيم في المملكة العربيَّة السعوديَّة منذ 1977. ولد عام 1952، وكان عضو هيئة تدريس في جامعة الملك سعود الإسلاميَّة وغيرها. له عدة أبحاث، وتم جمع بعض أبحاثه وترجمتها إلى العربيَّة تحت عنوان «دراسات في تاريخ مكة المكرمة والمدينة المنورة وجدة في العصر الإسلاميّ الوسيط» عام 2015م.

تتناول هذه المقالة موضوع علاقة أشراف مكة، وعلى وجه التحديد ذرية الحَسن بن عَليّ بن أبي طَالب، بالمذهب الزيديّ. ما هو المذهب الذي كان يتبعه أشراف مكة الحسنيين؟ وما هو دورهم في دعم وتأييد المذهب الزيديّ؟ وهل كان يُؤذن بحيّ على خير العمل في الصلوات المفروضة في المسجد الحرام؟ من كان اسمه يُذكر في خطبة الجمعة بمكة وأثناء الحج السنويّ إليها؟

كل هذه الأسئلة وغيرها يُجيب عنها هذا البحث المتواضع والقيّم. لقد قام المؤلف بدراسة مذهب أشراف مكة الحسنيين منذ أن تأسست أول سلالةٍ من الأشراف الحَسنيين في مكة، والمعروفة باسم الجَعفريين؛ أي من منتصف القرن الرابع الهجريّ/العاشر الميلاديّ حتى أوائل القرن العشرين الميلاديّ.

أجدد القول إن هذا البحث قيّم للغاية، وهو يُسلط الضوء على حقبة ومكان لم تُدرس مِن قَبل. لذا جاء فريدًا ويتسم بالجدية والابتكار الذي تتصف به الدراسات العلميَّة، وهو يهم القارئ العادي كما هو مهم للمختصين في التأريخ العربي الإسلامي، وخصوصًا تأريخ الجزيرة العربية ومكة المكرمة. كما يهم المهتمين بتأريخ المذهب الزيديّ في هذه المنطقة.

عملي في هذه الترجمة:

بالإضافة إلى الترجمة والإضافات والتعقيبات، قمتُ بصناعة قائمة بالمصادر والمراجع لهذه المقالة، كما أني قسمتها في قائمتين: الأولى المصادر والمراجع التي باللغة العربية، والأخرى بقائمة بالمراجع التي باللغة الأجنبية، مع ما يستلزم ذلك من إعادة ترتيب المصادر والمراجع حسب الترتيب الألفبائيّ.

وفي الأخير، فهذه ترجمتي؛ فإن استحقت الرضا، فذلك من الله، وإن كان من خطأ، فهو مني.

تنويه للقارئ:

كل ما يُوضّع بين معقوفتين [ ] في المتن أو الهامش، فهو من إضافة مادلونغ، وما كان من إضافة أو تعليق مني؛ فقد وضعته بين حاصرتين { }؛ تمييزًا لإضافات أو تعليقاتي.

1

يُمكن تقسيم الأشراف من الأصول الحَسنيَّة، الذين يُشار إليهم عمومًا باسم بني حَسن، الذين حكموا مكة وتوابعها من منتصف القرن الرابع الهجريّ/العاشر الميلاديّ حتى أوائل القرن العشرين، إلى ثلاثة فروع سلاليَّة رئيسة، يحمل كلٌ منها اسم أول أعضائها الذين تولّى منصب أمير مكة[1]. وهكذا، تأسست أول سلالة من الأشراف الحَسنيين في مكة، والمعروفة باسم الجَعفريين[2]، على يد جَعفر بن مُحَمَّد بن الحُسين الأمير، وهو من نسل الجيل التاسع من ذريَّة الحَسن بن عَليّ بن أبي طَالب، في نحو عام 357هـ/968م، قبل وقت قصير من فتح مصر للفاطميين في شمال إفريقيَة على يد قائدهم جوهر عام 358هـ/969م. وظلت السيطرة على مكة في أيدي الجَعفريين[3] حتى توفي آخر مُمثلٍ للسلالة، شكر بن أبي الفتوح، دون أن يترك وريثًا ذكرًا؛ وذلك في عام 453هـ/1061م.

وبعد فترة وجيزة من الفوضى، تنازع خلالها العديد من فصائل بني حَسن على السيطرة على المدينة المُقدسة؛ نجح الشريف مُحَمَّد بن جَعفر، وهو من نسل الجيل الثاني عشر للحَسن بن عَليّ بن أبي طَالب، في توحيد الأطراف المُتحاربة تحت قيادته واستعادة النظام في مكة؛ وذلك في 454هـ/1062م. وقد أصبحت الأسرة التي أسسها معروفةً باسم الهواشِم، نُسبة إلى كنيته، أو نسبةً إلى لقبه الأبويّ، أبو هاشم، وظلت هذه الأسرة في السُلطة حتى عام 597هـ/1200~1201م، عندما عُزل الشريف مُكثر (أو ربما مُكثِّر) بن عيسى من قِبل سليل فرعٍ آخر من بني حَسن، قَتادة بن إدريس. وقد ظل أحفاده، المعروفين لدى مؤرخي مكة باسم بني قَتادة، يحكمون الحجاز حتى عام 1925م، عندما تم ضم الأراضي الخاضعة لسيطرتهم لسيطرة الملك عبد العزيز ابن سعود.

ستستعرض هذه المقالة المواد المُتعلقة بالولاء الطائفيّ لبني حَسن منذ القرن الرابع الهجريّ/العاشر الميلاديّ حتى القرن التاسع الهجريّ/الخامس عشر الميلاديّ، والتي يُمكن استخلاصها من كتابات المؤرخين والجغرافيين والرحالة والموسوعيين العرب في العصور الوسطى. إن تحليل هذه المعلومات ضمن الإطار التأريخيّ المناسب يُبين بوضوحٍ كبيرٍ أن أشراف مكة كانوا حتى نهاية الفترة قيد النظر تقريبًا على المذهب الشِّيعيّ الزيديّ. إن توضيح هذه النقطة المهمة يُلقي ضوءًا جديدًا على الشبكة المُعقدة من العلاقات بين إمارة مكة والسلالات المُختلفة التي حكمت مصر واليمن والعراق طيلة معظم فترة العصور الوسطى.

وفي السنوات الأخيرة، أصبحت الجزيرة العربيَّة بشكلٍ عام، والحجاز بشكلٍ خاص، موضع تدقيقٍ مُتزايدٍ من جانب باحثي التأريخ الغربيين والعرب، بيد أن الدارسين المعاصرين للتأريخ السياسيّ والاجتماعيّ لمكة

---

1 للاطلاع على معلوماتٍ مُفصلةٍ حول التأريخ السياسيّ والاقتصاديّ لمكة منذ تأسيس شرافة مكة حتى نهاية العصر المملوكيّ؛ انظر: ريتشارد مورتيل، الأحوال السياسية والاقتصاد بمكة في عصر المماليك (الرياض، 1985م).

2 من أجل مناقشةٍ مُستفيضة للإشكاليات التي ينطوي عليها تحديد نسب مؤسس هذه السلالة وأسباب تسميتها بالجعفريَّة؛ يمكن العثور عليها في ريتشارد ت. مورتيل، «أنساب أشراف مكة الحَسنيين»، مجلة كليَّة الآداب، جامعة الملك سعود، المجلد12، العدد2 (1985م)، 221-250

3 لا يقصد المؤلف هنا أتباع المذهب الجعفريّ أو ما يُسمى بالاثني عشريَّة أو الإماميَّة؛ بل ذرية جعفر الأمير، المذكور أعلاه. المترجم.

اقتصروا على الإشارة العابرة إلى المذهب الشيعيّ للأشراف، أو تجاهلوا مشكلة الطبيعة الدقيقة لمعتقداتهم الدينيَّة، وبالتالي، تجاهلوا عاملًا مهمًا في ديناميكيات العلاقات الخارجيَّة لمكة[4]؛ بل إن مؤرخين آخرين زعموا أن أشراف مكة كانوا من السُّنَّة خلال الفترة قيد النظر هنا[5]. ومِن ثَم، فإن المراجعة الشاملة للمواد المصدريَّة التي تتناول هذه المسألة قد طال انتظارها.

2

خلال القرن الثاني الهجريّ/الثامن الميلاديّ، أصبحت الحجاز مسرحًا لعددٍ من الثورات العلويَّة الفاشلة، الموجهة ضد الخلفاء العَباسيين في بغداد، الذين اعتبروا أنهم نكثوا في الوفاء بالوعود التي قطعها زعماء الدعوة العَباسيَّة للعلويين قبل الثورة العَباسيَّة في عام 132هـ/750م. وسرعان ما أصبح من الواضح أن الحاكم العَباسي لم يكن لديه أي نيَّةٍ لمنح حُلفائه العلويين السابقين أي حصةٍ فعّالةٍ في عمليَّة الحُكم. وكان أبرز زعماء المعارضة العلويَّة ينتمون إلى بني حَسن، أمثال عبد الله المحض (المُتوفى145هـ/762م)، وابنه مُحَمَّدٍ (المُتوفى145هـ/762م)، والمعروف بالنفس الزكيَّة، وحفيده إسماعيل بن يُوسف الأخيضر (المُتوفى252هـ/866م)، وكذلك الحُسين بن عَليّ بن الحَسن بن الحَسن بن عَليّ بن أبي طَالب، المعروف بـ«صاحب فخ»؛ نُسبةً إلى الوادي الواقع على مشارف مكة حيث قتله عملاء العَباسيين في 169هـ/786م.

ويبدو أن المعارضة العلويَّة للحكم العَباسيّ دخلت مرحلةً من الهدوء خِلال الجزء الأكبر من القرن الثالث الهجريّ/التاسع الميلاديّ، ولكنها عادت إلى النشاط مرةً أخرى في فجر القرن الرابع الهجريّ/العاشر الميلاديّ تحت قيادة شريفٍ حَسنيٍّ يدعى مُحَمَّد بن سُليمان. ووفقًا لما أورده ابن خلدون (المُتوفى808هـ/1406م)، الذي يظل مصدرنا الوحيد للمعلومات المُتعلقة بهذا التطوّر؛ فإن مُحَمَّدًا بن سُليمان ينحدر من ثائرٍ حَسنيٍّ سابق يُدعى مُحَمَّدٍ الناهض {بأمر الله} بن سُليمان بن داود بن الحَسن بن الحَسن بن عَليّ بن أبي طَالب، الذي سيطر على مكة عام 301هـ/914م ورفض مُبايعة الخليفة العَباسي المُقتدر {بالله}. ولا يُعرف كم لبث مُحَمَّدٌ بن سُليمان مُسيطرًا على مكة، ولا توجد لدينا أيّ معلوماتٍ تتعلق بمدى نفوذه في الحجاز أو تركيبة

4 انظر، على سبيل المثال، أ. ج. وينسينك، «مكة»، موسوعة الإسلام، A. J. Wensinck, "Mecca," in the Encyclopaedia of Islam, 1st ed.؛ ودونالد بن ليتل، «تأريخ الجزيرة العربيَّة خلال دولة المماليك البحريَّة وفقًا لثلاثة مؤرخين مماليك»، Donald P. Little, "The History of Arabia During the Baḥrī Mamlūk Period According to Three Mamluk Historians," in Abdulgadir M. Abdalla, Sarni al-Sakkar, and Richard T. Mortel, eds., Studies in the History of Arabia, Vol. I, Part 2: Sources for the History of Arabia (Riyad, 1979), p. 216؛ وعَلِيّ بن حُسين السليمان، العلاقات الحجازيَّة المصريَّة زمن سلاطين المماليك (القاهرة، 1973م)، ص28-29؛ ومُحَمَّد جمال الدين سرور، سياسة الفاطميين الخارجيَّة (القاهرة، 1976م)، ص34؛ وأحَمد عُمرو الزيلعيّ، مكة وعلاقاتها الخارجيَّة (301-487هـ) (الرياض، 1981م)، ولم يتم التطرق لهذه الإشكاليَّة.

5 انظر، على سبيل المثال، عائشة بنت عبد الله با قاسي، بلاد الحجاز في العصر الأيوبيّ (مكة، 1980م). ص20؛ وعطيَّة القوصيّ، تجارة مصر في البحر الأحمر: منذ فجر الإسلام حتى سقوط الخلافة العباسيَّة (القاهرة، 1976م)، ص109

أتباعه. ولكن من الواضح من تصريحات ابن خلدون الموجزة أن مُحَمَّدًا بن سُليمان كان شيعيًا زيديًا[6]؛ وبذلك يُصبح أول شريفٍ حَسنيٍّ في مكة ينتمي إلى هذا المذهب.

لا يُمكن تحديد أن الشريف جَعفر بن مُحَمَّد، الذي أسس إمارة مكة سنة 357هـ/968م، ولا أيٍّ من خلفائه الجَعفريين، أنهم شِّيعَة زيديَّة في أيّ من المصادر المعروفة لهذا الكاتب[7]. ولكن من المرجح أنهم اعتنقوا العقيدة الزيديَّة، كما فعل سلفهم الداهية مُحَمَّد بن سُليمان. والواقع أن المصادر التي يُمكن الاعتماد عليها في كافة جوانب التأريخ السياسيّ والاقتصاديّ والاجتماعيّ للإمارة البدائيَّة هزيلةً في أحَسن الأحوال، ولم يتم تصحيح هذا الوضع إلا في زمن الهواشِم المتأخرين، في منتصف القرن السادس الهجريّ/الثاني عشر الميلاديّ، والذين توجد معلومات أكثر شمولًا عن أنشطتهم، ويُمكن إثبات زيديتهم بما لا يدع مجالًا للشك؛ بيد أن تحديد هويَّة الجَعفريين والهواشِم الأوائل، بوصفهم زيديَّةٌ يُساعد في تفسير عددٍ من الجوانب المهمة في التأريخ السياسيّ لمكة منذ منتصف القرن الرابع الهجريّ/العاشر الميلاديّ حتى ذلك الوقت.

فمنذ بداية حُكمهم في مكة، لم يُبايع الجَعفريون الخليفة العَباسي السُّنِّيّ في بغداد، بل للخليفة الفاطميّ الشِّيعيّ الإسماعيليّ في القاهرة. ويُقال إن الشريف جَعفر بن مُحَمَّدٍ ذكر اسم الخليفة الفاطميّ المُعز لدين الله في خطبة الجمعة التي ألقاها في المسجد الحرام بمكة في وقتٍ مُبكر من العام 358هـ/969م، بعد أن أُبلغ بالغزو الفاطميّ لمصر. كما يزعم المصدر نفسه أن جَعفرًا أرسل خبرًا عن هذا التعبير الرسميّ بولائه للمُعز نفسه، الذي كان لا يزال في القيروان، في تونس الحاليَّة. وقد أجاب المُعز بدوره بإرسال رسالةٍ رسميَّةٍ لتنصيب الشريف جَعفر بن مُحَمَّد أميرًا على مكة[8].

ومن ناحيةٍ أخرى، يُؤكد مؤرخان سابقان، ابن الجوزيّ (المُتوفى597هـ/1200م) وابن الأثير (المُتوفى630هـ/1232م)، أن اسم الخليفة العَباسي المُطيع {لله} استمر ذكره في الخطبة في مكة حتى شهر ذي الحجة 363هـ/أغسطس-سبتمبر (آب-أيلول) 974م، خلال موسم الحج، عندما تم استبداله باسم الخليفة الفاطميّ المُعز[9]، في حين يدّعي المقريزيّ (المُتوفى845هـ/1442م)، بالاعتماد على المصادر الفاطميَّة المُعاصرة المفقودة منذ ذلك الحين، أن الخطبة لم تُتلى باسم المُعز لدين الله إلا في العام التالي، 364هـ/975م[10].

---

6 عبد الرحمن بن مُحَمَّد بن خلدون، كتاب العِبر وديوان المبتدأ والخبر (القاهرة، 1284هـ)، 99/4. ويقول النص: «الزبيديّ» أي من أهل زبيد في اليمن، بدلًا من «الزيديّ»، ولكن من الواضح أنه خطأ في السياق.

7 أي الدكتور ريتشارد مورتيل صاحب هذه المقالة أقوم بترجمتها. المترجم.

8 نجم الدين عُمر بن مُحَمَّد بن فهد، «إتحاف الورى بأخبار أم القرى»، مخطوط بمكتبة جامعة الملك سعود، الرياض، رقم 1118. اللوحة2/113، أحداث سنة 358هـ؛ وعبد القادر بن مُحَمَّد الجزيريّ الأنصاريّ، دُرر الفوائد {المنظمة} في أخبار {الحج} وطريق مكة {المعظمة} (القاهرة، 1384هـ)، ص244-245.

9 أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزيّ، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (حيدر أباد، 1358هـ)، 7/1، ص75؛ وعز الدين عَلِيّ بن مُحَمَّد بن الأثير، الكامل في التاريخ (بيروت، 1965-1966م)، 648/8

10 تقي الدين أحَمد بن عَلِيّ المقريزيّ، اتعاظ الحُنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخُلفاء (القاهرة، 1967-1973م)، 225/1، 230

ولقد سارع الفاطميون إلى تعزيز موقفهم في مكة، وبالتالي اكتساب المكانة المرموقة في مُختلف أنحاء العالَم الإسلاميّ؛ وذلك بإرسالهم هدايا سخيَّةٍ إلى الأشراف الحَسنيين لضمان استمرار ولائهم، بالإضافة إلى شحناتٍ مُنتظمةٍ من الحبوب إلى الحجاز[11]. وقد أثبتت السياسة الفاطميَّة، فيما يتصل بمكة، نجاحها إلى الحد الذي جعل اسم الخليفة العَباسي لا يُذكَر مُجددًا في خطبة الجمعة في مكة، ولا أثناء الشعائر المرتبطة بالحج السنويّ إلى مكة؛ وذلك باستثناء انقطاعٍ بسيطٍ وحيدٍ[12]، حتى عام 454هـ/1062م أو 455هـ/1063م، في عهد الشريف مُحَمَّد بن جَعفر، أول أمراء مكة المعروفين باسم الهواشِم[13]. وعلى الرغم من أن حماسة أشراف مكة لإعلان ولائهم للخلفاء الفاطميين يُمكن أن تُعزى جزئيًا على الأقل إلى الحاجة المُلحة التي كانت مكة تعتمد عليها تقليديًا في استيراد الحبوب من مصر؛ إلا أنه من المحتمل جدًا أن يكون السبب الآخر وراء هذا التحالف هو العقيدة الشِّيعيَّة التي يتبناها الجَعفريون أنفسهم. ومن المُفترض أنهم كانوا أكثر ميلًا إلى دعم خليفةٍ شِّيعيٍّ، وإن كان إسماعيليًا، في القاهرة مِن دعمهم لخليفةٍ عَباسيٍّ سُنِّيٍّ في بغداد، كان لأسلافه تأريخٌ في قمع التطلعات الشرعيَّة العلويَّة في جميع الأراضي الخاضعة لسيطرتهم.

وفي عام 401هـ/1011م، سحب أمير مكة الشريف أبي الفتوح الحَسن بن جَعفر بيعته للخليفة الفاطميّ الحاكم بأمر الله. ولكنه لم يُعلن ولاءه للخليفة العَباسيّ القادر، بل شجعه على ذلك دعم أبي القاسم المغربيّ، وهو وزيرٌ سابقٌ للحاكم بأمر الله كان قد فر إلى الحجاز بعد أن أثار غضب الأخير، فأعلن أبو الفتوح نفسه خليفةً، واتخذ لقب «الراشد بالله». وفي البداية، حظي أبو الفتوح بدعم الأشراف الحَسنيين في مكة، فضلًا عن بني جراح، وهم فرعٌ من قبيلة طي العربيَّة القويَّة التي استقرت في جنوب فلسطين بالقرب من الرملة. ولكن نجاح أبي الفتوح أثبت أنه كان عابرًا؛ حيث لم يكن الفقر الاقتصاديّ النسبيّ في مكة كافيًا لتزويده بالموارد الماليَّة الكبيرة اللازمة لشن مثل هذه الثورة الطموحة، في حين نجح الحاكم بأمر الله في استمالة بني جراح إلى جانبه وفي إثارة الخلافات والسخط على أبي الفتوح داخل صفوف بني حَسن في مكة نفسها. ومع احتمال

---

11 مُحَمَّد بن عَليّ بن ميسر، أخبار مصر (القاهرة، 1919م)، ص47، 49؛ وابن الجوزيّ، المنتظم، 7/80-81؛ وابن الأثر، الكامل، 8/667؛ والمقريزيّ؛ اتعاظ الحُنفاء، 1/252، 267، 272؛ وانظر مقالتي «مصادر التأميم الغذائيّ لإمارة مكة»، في مجلة كليَّة الآداب، جامعة الملك سعود، المجلد12، العدد1 (1985م)، ص193-219

12 وفقًا لمصدرٍ متأخر (القرن التاسع الهجريّ/الخامس عشر الميلاديّ)، أعلن أمير الحج العراقيّ الخطبة بمكة باسم السلطان البويهيّ عضد الدولة والخليفة العباسيّ الطائع في موسم حج 368هـ/979م؛ انظر: عُمر بن «فهد، «إتحاف الورى»، أحداث سنة 368هـ. وكان البويهيون شِيعَةً بطبيعة الحال.

13 تقي الدين مُحَمَّد بن أحَمد الفاسيّ، شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام (القاهرة، 1956م)، 2/197؛ وسرور، سياسة الفاطميين، ص28؛ ومورتيل، الأحوال، ص17-25؛ وحُسين الهمدانيّ، الصليحيون والحركة الفاطميَّة في اليمن (القاهرة، 1955م)، ص95. ويمكن العثور على أدلةٍ على ذكر أسماء الخلفاء الفاطميين في الخُطبة بمكة، وتقديم الفاطميين الكسوة السنويَّة الكعبة خلال موسم الحج - وكلاهما دليلٌ على السيادة الفاطمية على مكة - في عهد الجعفريين، في المصادر الآتية: ابن ميسر، أخبار مصر، ص49؛ وابن الجوزيّ، المنتظم، 8/105؛ وابن الأثر، الكامل، 8/667؛ والمقريزيّ، الاتعاظ، 1/225، 246، 252-253، 267، 272، 281، 282، 284,289؛ و2/7، 8، 15، 20، 24، 41، 51، 59، 68، 95؛ والجزيريّ، الدرر، ص254

فقدان قاعدة سُلطته؛ اضطر أبو الفتوح إلى العودة إلى مكة لإنقاذ الوضع هناك، وبحلول عام 403هـ/1012م، تخلى عن جميع مطالباته بالخلافة، وتعهد مُجددًا بالولاء للحاكم بأمر الله[14].

وقد قُدمت العديد من التفسيرات لدوافع أبي الفتوح في ثورته ضد السيادة الفاطميَّة في الحجاز. والواقع أن المصادر التي تَرجع إلى العصور الوسطى تتحدث عن تأريخ علاقات مكة بالسلالة الفاطميَّة في مصر، والتي تتسم عادةً بالتفاصيل الدقيقة فيما يتصل بمثل هذه الأمور، تُخفق في ذكر إرسال أي مساعداتٍ ماليَّةٍ أو شحناتٍ من الحبوب من مصر إلى الحجاز خلال فترة السنوات الثلاث التي سبقت ثورة أبي الفتوح مباشرةً، ولا شك أن العشيرة الشريفة الحاكمة، فضلًا عن سكان مكة عمومًا، عانوا من انحدارٍ ملحوظٍ في مستوى معيشتهم نتيجةً لذلك. ومن المعروف أن أبا الفتوح ذكر هذه النقطة لأبي القاسم المغربيّ باعتبارها أحد أسباب استيائه من الحاكم بأمر الله، عندما كان أبو القاسم المغربيّ يُحاول إقناعه بالانفصال عن الفاطميين[15].

بيد أن مصاعب مكة الاقتصاديَّة، ولا حتى تحريض أبي القاسم المغربيّ، تُشكل تفسيراتٍ مُقنعةٍ في حد ذاتها لقرار أبي الفتوح بالتخلص من نير الفاطميين بشكلٍ كاملٍ وحاسمٍ مِن خِلال إعلان خلافته المنافسة. ربما تكمن الإجابة في المرسوم (السِجِل) الذي أرسله الحاكم إلى أبي الفتوح في 395هـ/1005م، والذي تضمن أمرًا إلى ولاة كل المناطق التي تعترف بالسيادة الفاطميَّة لإدانة أبي بكر وعُمر بن الخطاب، أول خليفتين ممن يُسمون بالخلفاء الراشدين. ولم يكتفِ هذا المرسوم بإثارة غضب الشريف أبي الفتوح، الذي رفض الامتثال له؛ بل تسبب أيضًا في إحداث شرخٍ في العلاقات المثاليَّة التي كانت قائمةً حتى ذلك الحين بين مكة والقاهرة[16].

لقد كان من شأن سِجل الحاكم بأمر الله الذي يقتضي لعن صحابيين من أشهر صحابة النَّبيّ مُحَمَّد أن يكون كافيًا لدفع أبي الفتوح إلى التفكير بجديَّةٍ في التوقف عن ذكر اسم وألقاب الخليفة الفاطميّ في كل خطبة جمعةٍ في مكة، وبالتالي سحب ولائه. وكان الحاكم بأمر الله، الذي كان من أشد أنصار الشِّيعَة الإسماعيليَّة، يَعتبر أبا بكر وعُمر مغتصبيْن لحق عَليّ بن أبي طَالب الشرعيّ في الخلافة، والتي أكدها النَّبيّ مُحَمَّدٌ ذاته وفقًا للعقيدة الشِّيعيَّة. ومن ناحيةٍ أخرى، فالزيديَّة المعتدلون، مع استمرارهم في الاعتراف بالأولويَّة المُطلقة لعَليّ بن أبي طَالب على كل الصحابة الآخرين؛ إما أنهم قبلوا بشرعيَّة خلافة أبي بكر وعُمر أو بتبني موقفًا مُحايدًا

14 فيما يتعلق بروايات ثورة أبي الفتوح؛ انظر: أبو شجاع مُحَمَّد بن الحُسين {الرذراوريّ}، ذيل تجارب الأمم (القاهرة، 1916م)، 236/3، 238؛ وجمال الدين عَليّ بن ظافر الأزديّ، أخبار الدول المُنقطعة (القاهرة، 1972م)، ص48، 49، 50؛ وأبو العَباس شمس الدين أحَمد بن مُحَمَّد بن خلِكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان (بيروت، 1968-1972م)، 174/2-175؛ وابن خلدون، العِبر، 102/4؛ وجمال الدين أحَمد بن عَليّ بن أبي عنبة الحَسنيّ، «عُمدة الطالب في أنساب آل أبي طَالب»، في مجموع الرسائل الكاملة (8) في الأنساب (الطائف، 1980م)، ص233؛ والفاسيّ، العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين (القاهرة، 1959-1969م)، 70/4-72، 74، 75؛ والمؤلف نفسه، شفاء الغرام، 195/2؛ والمقريزيّ، الاتعاظ، 87/2، 95؛ وعُمر بن فهد، «إتحاف الورى»، أحداث سنة 401هـ.

15 أبو شجاع، الذيل، 236/3؛ وابن خلِكان، وفيات الأعيان، 174/2-175؛ والفاسي، العقد، 71/4

16 ابن خلدون، العِبر، 101/4؛ وعُمر بن فهد، «إتحاف الورى»، أحداث سنة 395هـ.

تجاههما. وعلاوةً على ذلك، امتنع أغلبيَّة الزيديَّة عن التشهير العلنيّ بهما أو بأيٍّ من صحابة النَّبيّ الآخرين[17]. ولم يكن أبو الفتوح يرغب في نقل ولائه إلى الخليفة العَباسيّ في بغداد، ولذلك كان المسار الوحيد المتبقي له هو قطع علاقات مكة بالفاطميين وإعلان خلافته.

3

في عام 454هـ/1062م، خلف الهواشِمُ الجَعفريين كأمراءٍ على مكة، ومنذ السنوات الأولى لحكمهم، تُشير مجموعةٌ متنوعةٌ من الأدلة النصيَّة بوضوحٍ إلى أن الحُكام الجُدد للمدينة المُقدسة كانوا من الزيديَّة؛ بيد أنه لا يبدو أن الاعتبارات الطائفيَّة لعبت دورًا مُهيمنًا في تحديد طبيعة الولاء السياسيّ للهواشِم؛ إذ إنه في أغلب الأحيان تم استبدال أسماء وألقاب الخلفاء الفاطميين بأسماء وألقاب نُظرائهم العَباسيين في خطبة الجمعة في المسجد الحرام بمكة، حتى انهيار الأسرة الفاطميَّة نفسها في نهاية المطاف في عام 567هـ/1171م[18]. ويُمكن أن يُعزى هذا التحول في طبيعة علاقات مكة بالقوتين العظميين اللتين كانتا تتنافسان على ولاء الجزء الأكبر من العالَم الإسلاميّ إلى تراجع القوة الفاطميَّة والانهيار التدريجيّ لمؤسسات الدولة التي بدأت خلال فترةٍ طويلةٍ من حُكم الخليفة المستنصر (427هـ/1035م-487هـ/1094م). وخلال السنوات الوسطى من حُكم المستنصر، كانت مصرًا في قبضة المجاعة الشديدة غير المسبوقة التي استمرت لمدة سبع سنوات، ونتيجةً لذلك، تم تقليص الشحنات الدوريَّة من الحبوب والسخاء الماليّ الذي اعتمد عليه أشراف مكة في مُعظم سُبل عيشهم بشكلٍ حادٍ. وجراء هذا، أصبح من الأهميَّة بمكان أن يجد الأشراف رعاةً جددًا، وكان السلاجقة حماة الخلافة العَباسيَّة في العراق حريصين على القيام بهذا الدور، وبالتالي تأكيد السيادة السُّنِّيَّة الاسميَّة على الأماكن المُقدسة الإسلاميَّة في غرب الجزيرة العربيَّة. ورغم المحاولات العديدة التي بذلها الفاطميون لإقناع الهواشِم باستئناف الولاء لهم؛ إلا أنها باءت بالفشل إلى حدٍ كبيرٍ.

وبمجرد أن قطع الهواشِم الروابط التي تربطهم بالفاطميين وحولوا ولاءاتهم السياسيَّة إلى العَباسيين؛ حاول الأخيرون حثهم على التخلي عن المراسم الدينيَّة الشِّيعيَّة التي أصبحت شائعةً في مكة والامتثال للممارسات السُّنِّيَّة. وهكذا، في عام 464هـ/1071~1072، أرسل الخليفة العَباسيّ القائم {بأمر الله} الشريفَ أبي طَالب الحَسن بن مُحَمَّد إلى مكة بمبلغٍ كبيرٍ من المال والعديد من أردية الشرف للشريف أبي هَاشم مُحَمَّد بن جَعفر، مؤسس السلالة الثانيَّة من أشراف مكة، إلى جانب طلبٍ منه أن يأمر بحذف الصيغة الشِّيعيَّة التقليديَّة «حيّ

17 ولمزيدٍ من المعلومات عن أصول المذهب الزيديّ؛ انظر: مُحَمَّد بن عبد الكريم الشهرستانيّ، كتاب المِلل والنِحل (القاهرة، 1967م)، 1/154-157؛ وعبد القاهر بن طاهر البغداديّ، الفَرق بين الفرق (بيروت، دون تأريخ نشر)، ص22-23، 30-37. ويجدر بنا أن نذكر هنا أنه من المعروف أن أقليَّة من علماء الزيديَّة قد تبنوا موقفًا متطرفًا مؤيدًا للشيعة الإماميَّة تجاه الصحابة، وسمحوا بتشويه سمعتهم علنًا. بيد أن التيار الرئيس للفكر الزيديّ يُعارض مثل هذه الممارسات بشكلٍ واضح. انظر: إ. كولبرغ، «بعض الآراء الزيديَّة في أصحاب النَّبيّ»، E. Kohlberg, "Some Zaydi Views on the Companions of the Prophet," Bulletin of the School of Oriental and African Studies, 39 (1976), 94-97.

18 لمزيدٍ من المعلومات حول علاقات مكة مع الفاطميين والعَباسيين خلال هذه الفترة؛ انظر: مورتيل، الأحوال؛ وسرور، سياسة الفاطميين، ص28-33

على خير العمل» من أذان الصلوات المفروضة في المسجد الحرام. وعلى الرغم من أن مُحَمَّدًا بن جَعفر دافع في البداية عن إضافة هذه العبارة بحجة أن هذه كانت ممارسة عَلِيٍّ بن أبي طَالب نفسه؛ إلا أنه امتثل في النهاية لطلب القائم {بأمر الله}[19].

وتُشكل هذه الحادثة أهميَّةً كبيرةً بالنسبة إلى مؤرخي الحجاز في العصور الوسطى، وهو أقرب حدثٍ تأريخيٍّ منذ تأسيس إمارة مكة المكرمة عام 357هـ/968م، حيث توجد أدلةٌ نصيَّةٌ تُشير إلى مراعاة الممارسات الخاصة بالمذهب الشِّيعيّ في مكة. بالإضافة إلى ذلك، فإنه يُثبت أن المذهب الشِّيعيّ كان يتمتع بدعم شريف مكة الأعظم نفسه.

وبعد غزو صلاح الدين لمصر وخلع آخر الخلفاء الفاطميين، العاضد {لدين الله}، في عام 567هـ/1171م، أرسل صلاح الدين أخاه توران شاه بن أيوب للسيطرة على اليمن في عام 569هـ/1173م. وفي طريقه إلى هناك، توقف توران شاه لفترةٍ قصيرةٍ في مكة، حيث أكد على تولي حكم الشريف عيسى بن فُليته منصب الأمير[20]، مُشيرًا إلى أن مكة أصبحت تحت حماية الأسرة الأيوبيَّة الناشئة. وبعد مرور عشر سنوات، في شهر رمضان 579هـ/ديسمبر (كانون الأول) 1183- يناير (كانون الثاني) 1184م، وصل أخٌ آخر لصلاح الدين، الملك العزيز طغتكين بن أيوب، إلى مكة في طريقه لتولي ولاية اليمن الأيوبيَّة في عهد شريف مكة مُكثر بن عيسى. وأمر طغتكين، الذي يُمثل السُّنَّة المُتحمسين للسادة الجدد في مصر، بحذف الصيغة الشيعيَّة «حيّ على خير العملّ»، التي أُعيد إدخالها في أذان الصلوات المفروضة في المسجد الحرام[21].

وبسبب وجود دعمٍ محليٍّ قويٍ للمذهب الشِّيعيّ في المدينة المُقدسة؛ لم تحظ جهود طغتكين بنجاحٍ أكبر من نجاح جهود الخليفةً العَباسيّ القائم {بأمر الله} قبل أكثر من قرنٍ من الزمان. ويُشير الرحالة الأندلسيّ ابن جُبير، الذي كان حاضرًا في مكة أثناء زيارة طغتكين، إلى أن الشريف مُكثر كان زيديًا[22]، كما كان بقيَّة الأشراف الحَسنيين[23]. ومع ذلك، لاحظ ابن جُبير أنه في مناسباتٍ مُعيَّنة، كان مُكثر يُؤدي صلاة العشاء خلف الإمام الشافعيّ السُّنِّيّ[24]، على نقيض ممارسة بني حَسن الذين اعتادوا أداء كل الصلوات المفروضة خلف إمامهم الزيديّ. وبالإضافة إلى ذلك، سجل ابن جُبير أن بني حَسن لم يكونوا يُقيمون صلاة الجمعة، لكنهم كانوا يُؤدون

19 جمال الدين أبو المحاسن يُوسف بن تغري بردي، النجوم الظاهرة في ملوك مصر والقاهرة (القاهرة، ?-1972م)، 89/5

20 سبط ابن الجوزيّ، يُوسف بن قِزُغُلي، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان (حيدر أباد، 1952م)، 300/8-301.

21 سبط ابن الجوزيّ، مرآة الزمان، 388/8؛ وشهاب الدين أبو مُحَمَّد عبد الرحمن بن إسماعيل، أبي شامة المَقدسيّ، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (القاهرة، 1287-1288هـ)، 74/2؛ والفاسيّ، العقد، 62/5؛ وابن تغري بردي، النجوم، 103/6؛ وعُمر بن فهد، «إتحاف الورى»، أحداث سنة 581هـ.

22 أبو الحُسين مُحَمَّد بن أحَمد بن جُبير، تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار (القاهرة، 1968م)، ص11

23 المصدر السابق، ص84

24 المصدر السابق، ص 106

بدلًا عنها صلاة الظهر بأربع ركعاتٍ، وفقًا للممارسة الشِّيعيَّة. أما عن صلاة المغرب، فقد لاحظ ابن جُبير أن الشِّيعَة في مكة كان يُؤدوها في وقتٍ واحدٍ مجتمعين[25] مع المذاهب السُّنِّيَّة الأربعة في المسجد الحرام[26].

4

في أواخر القرن السادس الهجريّ/الثاني عشر الميلاديّ، انتزع قَتادة بن إدريس، وهو شريفٌ من أصل حَسنيٍّ، يعود أصله إلى المنطقة المعروفة بوادي ينبع في منتصف الطريق تقريبًا بين المدينة المنورة وساحل البحر الأحمر، السيطرة على مكة من آخر الهواشِم، مُكثر بن عيسى[27]، وأسس السلالة الثالثة من أشراف مكة، المعروفة باسم بني قَتادة، والتي حكمت إمارة مكة وتوابعها حتى القرن العشرين. وخلال فترة حكمه التي استمرت عشرين عامًا كأميرٍ على مكة (حوالي 597هـ/1200~1201م-617هـ/1220م)، نجح قَتادة في استعادة قدرٍ كبيرٍ من النظام والاستقرار للسياسة الداخليَّة للمدينة المُقدسة بعد حالة شبه الفوضى التي سادت هناك خلال العقود القليلة الماضية من حكم الهواشِم[28]، ثم شرع قَتادة في سياسة توسعيَّةٍ في الحجاز، والتي بلغت ذروتها في توسيع هيمنة مكة إلى ينبع والمدينة المنورة في الشمال وإلى جبال السراة في اليمن، جنوب الطائف[29].

وظل المذهب الزيديّ هو السائد بين بني حَسن في جميع أنحاء الحجاز خلال هذه الفترة. وعلى الرغم من أن قَتادة بن إدريس من مواليد واد ينبع، في أقصى الشمال من مكة، وهي مركز النشاط الشِّيعيّ في الحجاز، إلا أنه كان أيضًا من أتباع المذهب الزيديّ[30]، وكان يدعم بقوةٍ المعتقدات والممارسات الزيديَّة التي كانت سائدةً في مكة في عهد أسلافه من الهواشِم. وفي عهد قَتادة، كانت النسخة الشيعيَّة من صلاة التراويح هي الوحيدة المُستخدمة في المسجد الحرام في مكة[31]. ولم ينجح الأيوبيون في محاولاتهم لقمع الزيديَّة واستئصالها من المدن المُقدسة في الحجاز كما أخفق العَباسيون. وقد لاحظ ابن المجاور، الرحالة والجغرافيّ الشهير، الذي زار مكة بعد فترةٍ وجيزةٍ من وفاة قَتادة، أن غالبيَّة سكانها كانوا على «مذهب الإمام زَيد بن عَليّ بن الحُسين»[32].

وكان موت الشريف قَتادة بن ادريس العنيف على يد ابنه الحَسن في عام 617هـ/1220م إيذانًا بفترةٍ من الصراع الشديد في التأريخ السياسيّ لمكة، والذي بلغ ذروته بالاحتلال العسكريّ لمكة في عام 620هـ/1223م بواسطة الحاكم الأيوبيّ لليمن، الملك المسعود يُوسف، نيابةً عن والده، الملك الكامل مُحَمَّد، السلطان الأيوبيّ

25 بسبب ضيق وقت الصلاة. المترجم.

26 ابن جُبير، التذكرة، ص84-88

27 ابن خلدون، العِبر، 105/4؛ والفاسيّ، العقد، 70/4

28 ابن تغري بردي، النجوم، 249/6-250

29 ابن الأثير، الكامل، 401/12؛ وابن خلدون، العِبر، 105/4؛ والفاسيّ، العقد، 39/7

30 عماد الدين إسماعيل بن كثير، البداية والنهاية في التاريخ (القاهرة، 1351-1358هـ)، 92/13.

31 الفاسيّ، العقد، 7م57؛ وابن تغري بردي، النجوم، 250/6

32 جمال الدين أبو الفتح يُوسف بن يعقوب بن المجاور، تاريخ المستبصر (ليدن، 1951م)، 5/1

لمصر وسُوريَة. وبعد ست سنواتٍ، بعد وفاة المسعود، تولى أحد مساعديه، نور الدين عُمر بن عَليّ بن رسول، السيطرة على الأراضي الأيوبيَّة في اليمن لنفسه وأسس سلالة الرسوليين. وخلال العقدين التاليين، كانت السيادة على مكة محل نزاعٍ شديدٍ بين الرسوليين والأيوبيين في مصر وسُوريَة. وقد تغيَّرت السيطرة الفعليَّة على المدينة المُقدسة عدة مراتٍ، حتى عام 652هـ/1254م، عندما خَلَفَ مُحَمَّدٌ أبو نُمي، حفيد قَتادة بن ادريس، في الإمارة وتمكن من استعادة السيطرة الفعليَّة لصالح الأشراف الحَسنيين[33].

يُمثل حكم أبو نُمي، الذي دام طويلًا (652هـ/1254م-701هـ/1301م)، ذروة الاستقلال السياسيّ الحَسنيّ في مكة خلال عصر المماليك (648هـ/1250م-923هـ/1517م)، الذين خَلَفوا الأيوبيين كحُكامٍ على مصر وسُوريَة. إن رواية شهداء العيان مهمةٌ للحياة السياسيَّة والاجتماعيَّة والدينيَّة في مكة خلال السنوات الأخيرة من حكم أبي نُمي؛ تقدم لنا رواية الحاج المغربيّ القاسم بن يُوسف السّبتيّ التُجيبي (المُتوفى730هـ/1329م)، الذي وصل إلى مكة في 696هـ/1297م، وتُؤكد أن بني حَسن استمروا في التمسك بالمذهب الزيديّ؛ ويُشير إلى أن حامي الزيديَّة ومؤيدها الأكثر حماسةً في المدينة المُقدسة كان الشريف الأعظم أبي نُمي نفسه[34]. وكانت هيئة الصلاة الشِّيعيَّة مُستخدمةٌ رسميًا في المسجد الحرام[35]، وكان من يؤم المصلين في أداء الصلوات المفروضة زيديًا[36]. وفي أيام الجمعة في المسجد الحرام، كان الزيديَّة يُؤدون ركعات الظهر الأربع بدلًا من حضور صلاة الجمعة التي يُؤديها أهل السُّنَّة، تمامًا كما شهد ابن جُبير قبل أكثر من قرنٍ من الزمان على ذلك. ويُضيف التُجيبي إنه رغم معارضة العديد من علماء السُّنَّة في مكة لمثل هذه الطقوس الزيديَّة؛ إلا أنهم كانوا عاجزين عن اتخاذ أي تدابيرٍ تهدف إلى القضاء عليها بسبب رعاية الشريف أبو نُمي للزيديَّة[37].

ولقد أُعجب العديد من المؤرخين العرب اللاحقين بسجل إنجازات أبي نُمي، والتي لم يكن أقلها أهميَّةً الحفاظ على استقلال مكة على الرغم من الجهود المُتزايدة التي بذلها كلٌ من الرسوليين والمماليك لإدخال الحجاز بشكلٍ عام ومكة بشكل خاص في مناطق نفوذهم الخاصة. وكان مؤرخ مكة في القرن التاسع الهجريّ/ الخامس عشر الميلاديّ، تقي الدين مُحَمَّد بن أحَمد الفاسيّ مُتحمسًا إلى الحد الذي جعله يُعلن عن أبي نُمى أنه «لولا المذهب؛ لصلح للخلافة، كان زيديًا كأهل بيته»[38]. وقد ردد مُؤرخان مصريان للمملكة المملوكيَّة هما المقريزيّ وابن تغريّ برديّ صدى مديح الفاسيّ[39]. وبعد وفاة الشريف مُحَمَّد أبو نُمي عام 701هـ/1301م، شرع السلطان المملوكيّ الملك الناصر مُحَمَّد بن قلاوون في تنفيذ سياسةٍ تستند إلى تدخل أكثر نشاطًا في

33 لمزيدٍ من التفاصيل المتعلقة بالتأريخ السياسيّ المُعقد لهذه الفترة؛ راجع: مورتيل، الأحوال، ص42-52

34 القاسم بن يُوسف السّبتيّ التُجيبيّ، مستفاد الرحلة والاغتراب (تونس، 1975م)، ص297

35 المصدر السابق، ص298

36 المصدر السابق، ص297

37 المصدر السابق، ص298-299، 300

38 الفاسيّ، العقد. 467/1

39 المقريزيّ، كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك (القاهرة، 1956-1973م)، 927/1؛ وابن تغري بردي، النجوم، 199/8-200

السياسة الداخليَّة لمكة؛ بهدف إخضاعها لسيطرة المماليك الاسميَّة على الأقل. وقد ساعد الناصرَ مُحَمَّدٍ في تحقيق هذا الهدف التنافس الشديد بين أربعةٍ من أبناء الشريف الأعظم الراحل - أبو الغيث، وعطيفة، وحُميضة، ورُميثة - على خلافة الإمارة[40]. وسرعان ما اكتشف المماليك أن الأداة الأكثر فعاليَّةً لتنفيذ سياستهم الديناميكيَّة الجديدة تجاه الحجاز كانت أمير رحلة الحج المصريَّة السنويَّة[41]. وهكذا، في ذي الحجة 701هـ/ يوليو-أغسطس (تموز-آب) 1302م، عزل الأمير المصريّ بيبرس الجاشنكير حُميضة ورُميثة، اللذين تمكنا من تولي السيطرة المشتركة على مكة بعد وفاة أبي نُمي، وعيَّن أبا الغيث وعطيفة بدلًا منهما، بعد أن أقسما يمين الولاء للناصر مُحَمَّد[42].

وعند عودته إلى القاهرة، أبلغ بيبرسُ الجاشنكير السلطان بالطقوس الشيعيَّة التي شهدها في المسجد الحرام بمكة، وعلى إثر ذلك كتب الناصر مُحَمَّد إلى أبي الغيث وعطيفة للمطالبة بإلغاء الصيغة الشيعيَّة «حيّ على خير العمل» من أذان الصلاة، وتنحية إمام الصلاة الزيديّ من المسجد الحرام. وقد نقل رسالة الناصر مُحَمَّدٍ إلى مكة برلغيّ الأشرفيّ، أمير الحج المصريّ لعام 702هـ/1303م[43]. وعلى الرغم من أن أبا الغيث وعطيفة قد امتثلوا لرغبات السلطان؛ إلا أن الحاجة إلى إعادة التأكيد رسميًا على الطلب نفسه من جانب الإدارة المملوكيَّة في السنوات اللاحقة تُثبت بشكلٍ قاطعٍ أن الطقوس الزيديَّة قد استؤنفت في مكة بعد ذلك بفترةٍ وجيزةٍ. وكان أشراف مكة، على الرغم من قبلوهم حتميَّة تدخل المماليك في نزاعاتهم السياسيَّة الخاصة؛ إلا أنهم غير راغبين حتى اللحظة في السماح للمماليك بالتدخل في المسائل العقائديَّة البحتة.

وقد أدى عجز أبي الغيث وعطيفة عن الحفاظ على الحد الأدنى من الاستقرار في مكة إلى المزيد من التدخل العسكريّ المملوكيّ. وفي ذي الحجة 704هـ/يوليو (تموز) 1305م، حل محلهما أخوهما حُميضة ورُميثة بأمرٍ من الناصر مُحَمَّد نفسه[44]؛ بيد أن حالة الأمور في مكة استمرت في التدهور خلال السنوات التالية، حيث شرع الأمراء، إلى جانب أتباعهم وعبيدهم، في النهب المنظم لحجاج مصر وسُوريَة واليمن. ومرةً أخرى، اختار الناصر مُحَمَّد التدخل المباشر، وهكذا في ذي الحجة 713هـ/مارس-أبريل (آذار-نيسان) 1314م، عزل طقصُبا الظاهريّ، الأمير المصريّ، حُميضة ورُميثة وعيّن أبا الغيث أميرًا وحيدًا على مكة[45]، إلا أنه بعد وقتٍ قصيرٍ

40 لأحداث نصف القرن (701هـ/1301م-746هـ/1345م) التي تولى فيها بنو أبي نُمي منصب أمير مكة؛ انظر: مورتيل، الإحالة، ص65-92؛ والسّباعيّ، تاريخ مكة، ص262-272

41 وقد تناول عبد الله عنكوي أهميَّة أمير الحج المصريّ في تأريخ مكة خلال العصر المملوكيّ، في «الحج إلى مكة في زمن المماليك»، مجلة الدراسات العربيَّة، 1 (1974م)، 146-170

42 شهاب الدين أحَمد بن عبد الوهاب النويريّ، «عِقد الجُمان في فنون الأدب». مخطوط، القاهرة: دار الكتب المصريَّة، رقم 549 معارف عامة، المجلد 30، اللوحة7؛ والفاسيّ، العقد، 234/4؛ وابن حَجر العسقلانيّ، الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة (القاهرة، 1966م)، 167/2؛ وبدر الدين مُحَمَّد العينيّ، «عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان»، مخطوط، القاهرة: دار الكتب المصريَّة، رقم 1584 تأريخ، المجلد21، اللوحتان267-268

43 المقريزيّ، السلوك، 940/1-941؛ وابن حجر، الدرر، 9/2-10؛ وابن فهد، «إتحاف الورى»، أحداث سنة 703هـ؛ والجزيري، الدرر، ص291

44 عَلِيّ بن الحَسن الخزرجيّ، العقود اللؤلؤيَّة في تاريخ الدولة الرسوليَّة (القاهرة، 1911-1914م)، 362/1؛ والفاسيّ، العقد، 234/4، 405-406؛ والمقريزي، السلوك، 11/2

45 الملك المؤيد اسماعيل، أبي الفداء، المختصر في تاريخ البشر (القاهرة، 1323هـ)، 76/4

من عودة طقصُبا إلى القاهرة في أوائل عام 714هـ/1314م، طرد حُميضة أخاه أبا الغيث من مكة واستأنف كرسي الإمارة، وإن كان من دون مشاركة أخيه رُميثة[46]. وفي وقتٍ لاحقٍ من العام نفسه، ألحق حُميضة هزيمةً ساحقةً بأبي الغيث وحلفائه من الأشراف الحُسينيين في المدينة المنورة في معركةٍ دارت على مشارف مكة، ثم أمر شخصيًا بإعدام أخيه. ولا شك أن حُميضة توقع تدخل المماليك المُتجدد في الحجاز. لذا قرر الانضمام إلى منافسيهم، الرسوليين في اليمن، من أجل السيطرة على المدن المُقدسة الإسلاميَّة. وهكذا، تم استبدال اسم وألقاب الناصر مُحَمَّد في خطبة الجمعة في المسجد الحرام باسم وألقاب السلطان الرسوليّ الملك المؤيد داود[47]. وعندما وصلت فرقةٌ من فرسان المماليك إلى مكة عام 715هـ/1315م؛ لم يسعَ حُميضة إلى طلب حماية رُعاته الرسوليين الجدد كما كان متوقعًا؛ بل فر بدلًا من ذلك إلى بلاط السلطان الإلخانيّ في العراق، أولجايتو، حفيد هولاكو خان[48].

لقد تحَسنت العلاقات بين الرسوليين والمماليك بشكلٍ كبيرٍ منذ العام 712هـ/1312م، ومن المحتمل أن الشريف حُميضة أدرك أن المؤيد داوود لن يكون حريصًا على المجازفة بتعريض تقاربه مع الناصر مُحَمَّد للخطر من خلال إيواء ثائرٍ ضد المماليك. ومن ناحيةٍ أخرى، تحول السلطان الإلخاني أولجايتو إلى المذهب الشِّيعيّ الإثني عشريّ في 710هـ/1310م، وحاول منذ العام 712هـ/1312م، وإن لم ينجح بشكلٍ ملحوظ، انتزاع المقاطعات السوريَّة من سيطرة المماليك[49]. وكان الظهور غير المتوقع للشريف حُميضة، أمير مكة السابق والزيديّ الذي كان عداءه للناصر مُحَمَّدٍ معروفًا على نطاق واسع، في بلاط أولجايتو فرصةً لم يُفوتها الإلخانيون أهميتها.

وفي رجب سنة 716هـ/سبتمبر-أكتوبر (أيلول-تشرين الأول) سنة 1316م، فوّض أولجايتو الشريف حُميضة قيادة جيشٍ مُجهزٍ تجهيزًا جيدًا يتألف من عدة آلاف من فرسان المغول وكتيبةٍ كبيرةٍ من رجال القبائل العربيَّة من العراق وأرسله إلى الحجاز بأوامر لإخضاعها لسيطرة الإلخانيين. وبعد فترةٍ وجيزةٍ من مرور حملة حُميضة بمدينة البصرة الساحليَّة جنوب العراق، وصلت إليهم أنباء وفاة أولجايتو في وقتٍ غير مناسبٍ، وعلى إثر ذلك انقسم الجيش بسرعة وهجره جزءٌ كبيرٌ منه. أما أولئك الذين بقوا مع حُميضة، فقد هاجمهم زعيم بدو الفضل

---

46 الفاسيّ، العقد، 233/4؛ و80/7

47 أبو الفداء، المختصر، 76/4؛ والفاسيّ، العقد، 237/4-238؛ والمقريزيّ، السلوك، 145/2؛ وانظر: جاك جوميه، المحمل، Jacques Jomier, Le Mahmal, Bulletin de l'lnstitut Fran ais d'Archeologie Orientale, Recherches d'Archeologie, de Philologie et d'Histoire (Cairo, 1953) , vol. 20, p. 45.

48 النويريّ، عِقد الجُمان، 315/30؛ والفاسيّ، العقد، 238/4، 407-408؛ والعيني، «عقد الجمان»، المجلد23، اللوحة54

49 تمت مناقشة تحول أولجايتو إلى المذهب الشّيعيّ في السير هنري هوورث، تأريخ المغول، Sir Henry Howorth, History of the Mongols (London, 1876-1888), vol. 3, p. 559؛ و«الفترة السلجوقيَّة والمغوليَّة»، "The Saljuq and Mongol Periods," in The Cambridge History of Islam (Cambridge, 1968), vol. 5, pp. 402, 543-544؛ وبرتولد سبلر، المغول في إيران، Bertold Spuler, Die Mongolen in Iran (Berlin, 1968), pp. 190-191. وتمت مراجعة الأهداف الإلخانيَّة بشأن سُوريَة في كتاب هوورث، التأريخ، Howorth, History, vol. 3, pp. 565-567, 577-579؛ وسبلر، المغول، Spuler, Mangolen, pp. 111f.؛ وفايد حمَّاد عاشور، العلاقات السياسيَّة بين المماليك والمغول، في الدولة المملوكيَّة الثانية (القاهرة، 1976م)، ص174-176، 182-185

وهزمهم هزيمةً ساحقةً. وقد نجح حُميضة في النجاة من الكارثة، وشق طريقه إلى مكة برفقة ثلاثة وعشرين فارسًا، ووصل إليها في أوائل عام 717هـ/1317م[50].

لقد أحبطت وفاة السلطان أولجايتو بلا شكٍ مُخططات الإلخانيين في الحجاز، والتي تجاوزت مجرد ضم المدن المُقدسة الإسلاميَّة لتشمل الانتشار النشط للعقائد الشِّيعيَّة في غرب الجزيرة العربيَّة[51]. ويذكر العديد من المؤرخين العرب أن أحد أهداف الحملة المنكوبة، التي قادها الشريف حُميضة، كانت إزالة رفات أبي بكر وعُمر من أماكن دفنهما بجوار قبر النَّبيّ مُحَمَّدٍ في المسجد النبويّ في المدينة المنورة[52]. وكان من المتوقع أن يُقدِّم حُميضة دعمه لمحاولات الإلخانيين لنشر المذهب الشيعيّ الاثني عشريّ في الحجاز، ولكن من المشكوك فيه ما إذا كان، وهو شِّيعيّ زيديّ معتدل، قد تعاون بنشاطٍ مع الإلخانيين في تنفيذ الجوانب الأكثر تطرفًا في سياستهم تجاه الحجاز.

وعلى الرغم من فشل الحملة الإلخانيَّة في عام 716هـ/1316م، لم ييأس حُميضة من إمكانيَّة إقامة شكلٍ من أشكال الهيمنة الإلخانيَّة على مكة. وفي أواخر شهر ذي الحجة 717هـ/مايو (آيار) 1318م، عزل حُميضة أخاه رُميثة عن منصب أمير مكة وتولى المنصب بنفسه. وكان من أوائل الإجراءات الرسميَّة هو استبدال اسم وألقاب السلطان المملوكيّ الملك الناصر مُحَمَّدٍ في خطبة الجمعة باسم وألقاب ابن أولجايتو وخليفته، أبو سَعيد[53]. لكن الخطبة للإلخانيين كانت قصيرة الأجل؛ إذ فر حُميضة من مكة في وقتٍ مُبكرٍ من العام التالي، 718هـ/1318م، قبل وقتٍ قصيرٍ من وصول فرقةٍ من جنود المماليك التي أرسلها الناصر مُحَمَّد إلى الحجاز لإعادة ترسيخ النفوذ المملوكيّ في المدينة المُقدسة. ثم وُضِعت مكة تحت الاحتلال العسكريّ المملوكيّ المباشر، والذي استمر حتى عيَّن الناصر مُحَمَّد الشريفَ عطيفة بن أبي نُمي أميرًا على مكة في عام 719هـ/1319م[54].

وكان رُميثة بن أبي نُمي أكثر أنصار الزيديَّة حماسةً في مكة خلال العقد الثالث من القرن الثامن الهجريّ/ الرابع عشر الميلاديّ. وعلى الرغم من أنه لم يلعب سوى دورٍ سلبيٍّ في السياسة الداخليَّة المُعقدة للإمارة خلال العقدين السابقين، تاركًا توجيه الشؤون إلى حدٍ كبيرٍ في أيدي أخيه حُميضة، فمن الواضح أن رُميثة قدم دعمًا ضمنيًا على الأقل لمقترح الأخير تجاه الإلخانيين المغول. وخلال موسم الحج عام 718هـ/1318م، استولى

---

50 النويريّ، نهاية الأريب، 345/30، 355-356؛ وأبو الفداء، المختصر، 83/4-84؛ وابن عنبة، عمدة الطالب، ص242؛ والمقريزي، السلوك، 147/2-148؛ وهوورث، التأريخ، History, vol. 3, p. 572.

51 ابن كثير، البداية، 77/19-78

52 النويريّ، «عِقد الجُمان»، المجلد 30، اللوحة 356؛ والمُفضّل بن أبي الفضائل، النهج السديد والدر الفريد في ما بعد تاريخ ابن العميد، في Patrologia Orientalis, vol. 20 (Paris, 1928), pp. 262f.؛ والفاسيّ، العقد، 240/4؛ والعينيّ، «عقد الجُمان»، المجلد23، اللوحة70؛ وابن فهد، «إتحاف الورى» أحداث سنة 716هـ؛ وسبلر، المغول، Spuler, Mangolen, p. 191.

53 النويريّ، «عِقد الجُمان»، المجلد 30، اللوحة405؛ وابن حجر، الدرر، 167/2-168؛ والفاسيّ، العقد، 242/4، 409؛ والعينيّ، «عقد الجُمان»، المجلد23، اللوحة149

54 النويريّ، «عِقد الجُمان»، المجلد 30، اللوحة406؛ وأبي الفداء، المختصر، 87/4؛ والفاسيّ، العقد، 87/4، 410؛ و96/6؛ والمقريزيّ، السلوك، 185/2، 190؛ والعينيّ، «عِقد الجُمان»، المجلد 23، اللوحة168-169

بدر الدين بن التركمانيّ، قائد سريَّة المماليك المسؤولة عن الحفاظ على النظام في مكة، على رُميثة واقتاده إلى القاهرة مُقيدًا بالسلاسل، حيث وُضِعَ تحت الإقامة الجبريَّة. وفي روايته لهذه الحادثة، يذكر المؤرخ المصري المُعاصر شهاب الدين أحَمد بن مُحَمَّد بن عبد الوهاب النويريّ (المُتوفى732هـ/1332م) أن رُميثة كان يُقدم الدعم السري لأخيه حُميضة منذ أن استبدَل هذا الأخير اسم الناصر مُحَمَّدٍ في الخطبة باسم السلطان الإلخانيّ أبي سعيد، في وقت سابقٍ من العام نفسه[55]. وبعد أن وصلت أنباء مقتل الشريف حُميضة، الذي كان يعيش بالقرب من مكة، إلى السلطان في القاهرة في نهاية عام 720هـ/1320م، أطلق الناصر مُحَمَّدٍ سراح رُميثة، وأعاد إليه الحظوة، وعيَّنه أميرًا مشتركًا على مكة إلى جانب أخيه عطيفة، الذي شغل المنصب بشكلٍ مستقلٍ لمدة عامٍ واحد[56]. وبعد فترةٍ وجيزةٍ من عودته إلى السُلطة في مكة، أعلن رُميثة علنًا دعمه للزيديَّة[57].

ووفقًا للمؤرخ المكيّ الفاسيّ (المُتوفى832هـ/1429م)، كان أحد الزيديَّة من أصلٍ شريفٍ يؤم الشِّيعَة في أداء الصلوات المفروضة أمام الكعبة في المسجد الحرام خلال هذه الفترة. وبعد الانتهاء من صلاة الفجر والمغرب، كان يرفع صوته، ويردِّد الأدعية التالية بصوتٍ عالٍ:

اللهم صل على مُحَمَّدٍ، وعلى أهل بيته المصطفين الأطهار، المنتخبين الأخيار، الذين أذهب الله عنهم الرجس، وطهرهم تطهيرًا. اللهم انصر الحق والمحقين، واخذل الباطل والمبطلين، ببقاء ظل أمير المؤمنين، تُرجمان البيان وكاشف علوم القرآن، الإمام ابن الإمام ابن الإمام، مُحَمَّدٍ بن المُطهر بن يَحيى[58] ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذي للدين أحيى، إمام المتقين وحجاب الصائمين. اللهم انصره وشعشع أنواره واقتل حساده، واكبت أضداده[59].

إن المشاعر الشِّيعيَّة الصريحة التي عبرت عنها هذه الأدعية، والذكر العلنيّ لاسم الإمام الزيديّ في اليمن، تُقدم لنا صورةً دراميَّةً للمشاعر المذهبيَّة التي كان يتبناها رُميثة بن أبي نُمى ورفاقه الحَسنيين في مكة، كما أنها تُلقي الضوء على حقيقة ولاءات هؤلاء الأشراف السياسيَّة.

ومنذ وفاة الشريف مُحَمَّدٍ أبو نُمي في عام 701هـ/1301م، بذل المماليك، خلال فترة حكم السلطان الملك الناصر مُحَمَّدٍ بن قلاوون الطويلة، عدة محاولاتٍ لفرض نُسختهم من العقيدة السُّنِّيَّة على سكان مكة، كإضافةٍ إلى سياستهم الأكثر عموميَّةً، والتي سعت إلى ترسيخ السيادة المملوكيَّة بشكلٍ دائم في الحجاز. وكان دعم رُميثة الحماسيّ للزيديَّة، والذي ذهب إلى حد السماح بالدعاء العلنيّ للإمام الزيديّ في اليمن في المسجد الحرام، يُمثل

55 النويريّ، «عِقد الجُمان»، المجلد 30، اللوحات406، 420-421؛ وانظر: الفاسيّ، العقد، 410/4؛ والمقريزيّ، السلوك، 185/2

56 النويريّ، «عِقد الجُمان»، المجلد 30، اللوحة421؛ وأبي الفداء، المختصر، 92/4

57 الفاسيّ، العقد، 412/4؛ و97/6

58 مُحَمَّد بن المطهر بن يَحيى هو الإمام الزيديّ التاسع عشر لليمن، الذي امتد حكمه من 701هـ/1301م إلى 728هـ/1327م؛ وانظر: أيمن فؤاد السيد، مصادر تاريخ اليمن في العصر الإسلاميّ (القاهرة، 1974م)، ص407

59 الفاسيّ، العقد، 98/6-99

تحديًا خطيرًا لهذه السياسة، وسرعان ما وجد المماليك أنه من الضروري مضاعفة جهودهم الرامية إلى قمع الزيديَّة في المدينة المُقدسة. وهكذا، في عام 725هـ/1325م، ورد أن إمام المسجد الحرام الزيديّ فر إلى وادي مر، على مشارف مكة، أثناء مرور جيش المماليك الذي أرسله الناصر مُحَمَّدٍ إلى اليمن بناءً على طلب السلطان الرسولي الجديد الملك المؤيد داوود، لمساعدته في الحفاظ على النظام في مملكته. وبعد رحيل المماليك، عاد الإمام إلى مكة واستأنف مهامه في الوقت المناسب للمشاركة في مناسك موسم الحج[60].

وعلى الرغم من أن جيش المماليك لم يتدخل في أنشطة الزيديَّة في عام 725هـ/1325م، فإن هروب الإمام الزيديّ يُوضح حالة التوتر التي كانت قائمةً بين المماليك السُّنَّة والأشراف الحَسنيين الشِّيعَة. وفي العام التالي، سافر الشريف رُميثة إلى القاهرة استجابةً لاستدعاءٍ رسميٍّ من الناصر مُحَمَّدٍ. وبعد وقتٍ قصيرٍ من وصول رُميثة، أرسل السلطان مرسومًا رسميًا إلى أخي رُميثة وأمير مكة المشترك، عطيفة بن أبي نُمي، يأمره بمنع إمام الزيديَّة من إمامة أتباعه في أداء الصلوات المفروضة في المسجد الحرام. ويزعم شمس الدين أبي عبد الله مُحَمَّدٍ بن مجد الدين الجزريّ (المُتوفى739هـ/1338م)، المؤرخ الدمشقيّ المُعاصر الذي يروي هذه الحادثة، أن عطيفة استجاب لرغبات السلطان وطرد الإمام الزيديّ بالقوة من المسجد الحرام في شعبان 726هـ/13 يوليو-أغسطس (تموز-آب) 1326م[61]. ولكن سرعان ما عاد الإمام إلى واجباته: يذكر الرحالة المغربيّ ابن بطوطة، الذي كان في مكة في شهر ذي الحجة/أكتوبر-نوفمبر (تشرين الأول-تشرين الثاني) من العام نفسه، أن الإمام كان يؤم إخوانه الشِّيعَة في الصلاة في المسجد الحرام في ذلك الوقت[62]. ومن الجدير بالذكر، أن الشريف رُميثة كان قد عاد بحلول ذلك الوقت إلى مكة، حيث استمر في ممارسة وظائف الأمير بالاشتراك مع أخيه عطيفة[63].

وعلى الرغم من محاولات الناصر مُحَمَّدٍ المتكررة لحظر المراسم الشيعيَّة في مكة؛ ظل دعم الأشراف للزيديَّة دون تغييرٍ إلى حدٍ كبير. ويُؤكد الموسوعي المعاصر شهاب الدين أحَمد بن يَحيى بن فضل الله العُمريّ (المُتوفى749هـ/1348م) على الارتباط العميق بين أشراف مكة والعقيدة الزيديَّة، ويُسجل محادثةً مُستنيرةً أجراها مع مبارك، نجل الشريف عطيفة، والتي تطرقت إلى الدلالات السياسيَّة لمذهب الأشراف الشِّيعيّ. «وحدثني الشريف مبارك ابن الأمير عطيفة بن أبي نُمي أنهم لا يدينون إلا بطاعة ذلك الإمام [أي الإمام

60 الفاسيّ، العقد، 99/6

61 شمس الدين أبو عبد الله مُحَمَّد بن مجد الدين الجزريّ، «تأريخ الجزريّ»، مخطوط، القاهرة: دار الكتب المصريَّة، رقم 995 تأريخ، المجلد3، اللوحة12؛ وانظر: الفاسيّ، العقد، 98/6، بعد الجزريّ.

62 أبو عبد الله مُحَمَّد بن عبد الله بن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار (بيروت، 1964م)، ص160

63 المصدر السابق، ص148، 161

الزيديّ في اليمن]، ولا يرون إلا أنهم نوابه، وإنما يتوقّون صاحب مصر؛ لخوفهم منه وللإقطاع، وصاحب اليمن؛ لمداراتهم لواصل {الكارم}[64] [في القدوم إلى مكة] و [الحصول على] رسوم الأنعام»[65].

5

تُوفي رُميثة بن أبي نُمي وهو أمير مكة في الثامن من ذي القعدة 746هـ/3 مارس (آذار) 1346م، ومع وفاته، بدأ عصرٌ جديدٌ في تأريخ المدينة المُقدسة، حيث انتقلت السُلطة إلى جيلٍ جديدٍ، أحفاد الشريف مُحَمَّد أبو نُمي. وكان كل المتنافسين على السُلطة خلال نصف القرن التالي من نسل رُميثة، الأكثر نجاحًا من بين ذريَّة أبي نُمي العديدة. وشهدت هذه المرحلة الجديدة من تأريخ مكة، والتي استمرت حتى تولي حَسن بن عجلان الحكم عام 797هـ/1395م، تراجعًا تدريجيًا في دعم الأشراف للمذهب الزيديّ مقارنةً بحماس الأسلاف السابقين أمثال حُميضة ورُميثة. وخلال النصف الأخير من القرن الثامن الهجريّ/الرابع عشر الميلاديّ، بدأ الكُتَّاب المُعاصرون في التعبير عن شكوكهم بشأن شِّيعيَّة بعض الحَسنيين البارزين في مكة، في حين كان من المعروف أن آخرين منهم قد تبعوا الإسلام السُّنِّيّ.

إن أول إشارةٍ إلى التحول القادم في مستقبل الزيديَّة في مكة يُمكن إرجاعها إلى يوم وفاة ودفن الشريف رُميثة تحديدًا. فبعد تجهيز جثمان الشريف للدفن، قام إمامٌ زيديٌّ يُدعى أبو القاسم بن الشُغيف الزيديّ ليتولى مراسم الدفن، ولكن منعه من ذلك كبير قضاة مكة، شهاب الدين الطبريّ، وهو فقيهٌ شافعيٌّ. ورغم حضور ابن رُميثة وخليفته عجلان؛ فإنه لم يتدخل[66].

وقد احتفظ الفاسيّ بحكايةٍ؛ تُقدم دليلًا إضافيًا على بدايات اتجاهٍ بعيدٍ عن الزيديَّة في مكة. فوفقًا لروايته، فقد طلب فقيه مصر الشافعيّ الشهير، عز الدين بن جماعة، في إحدى زياراته للحجاز من ابن الشُغيف، الزعيم المُعترف به الزيديَّة في مكة، أن يتخلى رسميًا عن معتقداته الزيديَّة. ويُقال إن ابن الشُغيف، الذي لم يكن تحت أيّ شكلٍ من أشكال الإكراه على ما يبدو، قد كتب ذلك في رق مكتوب، وأنه اتبع المذهب السُّنِّيّ[67].

ومن منذ وفاة رُميثة بن أبي نُمي عام 746هـ/1346م وحتى عام 762هـ/1361م، تنازع العديد من أبنائه على السيطرة على إمارة مكة؛ حيث كان منصب الأمير في الغالب من نصيب عجلان وثَقبة، إما بشكلٍ مُستقلٍ أو مشترك، على الرغم من أن أخاهما سندًا وابن عمهما مُحَمَّدًا بن عطيفة بن أبي نُمي حكما الإمارة أيضًا لفتراتٍ قصيرة. وكانت التغييرات في السُلطة تحدث بشكلٍ متكررٍ، ولم يتمكن شريفٌ واحدٌ أو تحالفٌ من الأشراف

64 ترجمها المؤلف في النص الانجليزيّ إلى «الكريم»، وما أثبته هو الصواب حسب ما أثبته محقق كتاب التعريف بالمصطلح الشريف، ومعنى الكارم: البهار من الفلفل والقرنفل وغيرهما، نسبة إلى التجار الذين كانوا يأتون بها، وهم من بلاد الكانم الإسلاميَّة التي تقع عند بحر قزوين، وثم حُرفت الكانم إلى الكارم والذي يُطلق على كل من يُمارس التجارة. المترجم.

65 شهاب الدين أحمد بن يَحي بن فضل الله العُمريّ، التعريف بالمصطلح الشريف (القاهرة، 1312هـ)، ص160

66 الفاسيّ، العقد، 417/4

67 المصدر السابق. 89/8-90

من الاحتفاظ بالسيطرة على مكة لأكثر من عامٍ أو عامين في المرة الواحدة. وفي عدة مناسبات، تم نقل السُلطة التنفيذيَّة مِن خِلال تدخل المماليك المباشر.

وفي عام 754هـ/1353م، عندما كان ثَقبة بن رُميثة أميرًا لمكة، تعرض إمام الزيديَّة في المسجد الحرام للضرب المبرح ثم سُجن بعد رفضه التخلي عن الزيديَّة. وقد تمكن فيما بعد من الفرار من مكان احتجازه، وهرب إلى وادي نخلة، على مشارف مكة. والظروف الدقيقة المُحيطة بهذه الحادثة غير واضحةٍ، وإن كان من المعروف أن الإمام المذكور كان يؤم الزيديَّة في الصلوات المفروضة في المسجد الحرام، وقد أُقيم له هناك منبرًا، كان من عادته أن يخطب مِن فوقه في مناسباتٍ مُعيَّنةٍ، مثل عيد الفطر وعيد الأضحى[68]. ومن الجدير بالملاحظة أن الاعتداء على الإمام الزيديّ وقع في عهد الشريف ثَقبة، الذي عُرف بأنه زيديٌّ مُتحمس أظهر احترامًا كبيرًا لمعتقدات مذهبه وطقوسه[69].

وفي ذي الحجة 754هـ/ديسمبر (كانون الأول) 1353م-يناير (كانون الثاني) 1354م، نفّذ عُمر شاه، أمير الحج المصريّ، الأوامر الصادرة إليه من السلطان المملوكيّ الملك الصالح صالح، وخلع ثَقبة وعيَّن أخاه عجلان أميرًا لمكة بدلًا منه. وبعد ذلك بوقتٍ قصير، أمر عُمر شاه بضرب المؤذن الزيديّ في المسجد الحرام حتى الموت[70]. وهذه الحادثة، إلى جانب الاعتداء السابق على الإمام الزيديّ في المسجد الحرام، دليلٌ على محاولة مملوكيَّةٍ أكثر حزمًا لاستئصال المذهب الشِّيعيّ من مكة. ومن المُحتمل أن المماليك وجدوا حليفًا راغبًا في تنفيذ سياستهم مُمثلًا في الشريف عجلان بن رُميثة، الذي حكم مكة على فتراتٍ من عام 746هـ/1345م إلى عام 762هـ/1361م، ثم حكمها بشكلٍ مُستمر حتى وفاته عام 777هـ/1375م. وقد اكتسب عجلان شهرةً خاصةً بسبب احترامه العميق للمعتقدات السُّنِّيَّة، إلى الحد الذي جعل بعض المؤرخين يعتبرونه حاميًا للمذهب السُّنِّيّ في المدينة المُقدسة، في وقتٍ استمر فيه أقرانه من الأشراف الحَسنيين في إعلان تأييدهم للزيديَّة علانيةً. وحسب ما دونه الفاسيّ، فقد زعم بعض معاصري عجلان أنه تحول بالفعل إلى المذهب السُّنِّيّ واتّبع المذهب الشافعيّ الذي كان سائدًا في مكة آنذاك[71].

بيد أن دعم عجلان للسُّنَّة كان لا يزال يُشكل شذوذًا في مكة في أواخر القرن الثامن الهجريّ/الرابع عشر الميلاديّ، ومن غير المؤكد ما إذا كان له مُقلِّدون بين بني حَسن. وكان أخوه سند، الذي حكم مكة لعدةِ فتراتٍ قصيرةٍ بين عامي 748هـ/1347~1348م و762هـ/1361م، من أشد المدافعين عن الزيديَّة، فقام بتعيين خطيبٍ

68 المقريزيّ، السلوك، 904/2؛ وابن فهد، «إتحاف الورى»، أحداث سنة 754هـ.

69 الفاسيّ، العقد، 399/3؛ وابن تغري بردي، «المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي»، مخطوط، القاهرة: دار الكتب المصريَّة رقم 1113 تأريخ، المجلد1. اللوحة451 أ.

70 المقريزيّ، السلوك، 904/2؛ وابن فهد، «إتحاف الورى»، أحداث سنة 754هـ.

71 الفاسيّ، العقد، 70/6؛ وابن حجر العسقلانيّ، أنباء الغمر بأبناء العمر (القاهرة، 1969-1972م)، 115/1؛ وابن تغري بردي، «المنهل»، المجلد 2، اللوحة377 ب؛ والمؤلف نفسه، النجوم، 139/11.

زيديٍّ ليخطب في إخوانه الشِّيعَة في المسجد الحرام في أيام الأعياد[72]. ورغم شهرة عجلان المؤيدة للسُّنَّة؛ لم يتمكن ابن تغري بردى (المُتوفى874هـ/1469م) من التأكد مما إذا كان ابنه أحَمد، الذي شغل منصب أمير مكة بشكلٍ مشترك وفي بعض الأحيان بشكلٍ مستقلٍ، من عام 762هـ/1361م وحتى 788هـ/1386م، شارك والده معتقداته، أو أنه استمر في التمسك بالمذهب الزيديّ بين إخوانه الأشراف[73].

وفي أواخر الربع الأول من القرن التاسع الهجريّ/الخامس عشر الميلاديّ، كان أشراف مكة لا يزالون يُعتبَرون زيديَّة مِن قِبل معاصريهم. فقد كتب الموسوعيّ المصريّ شهاب الدين أبي العَباس أحَمد بن عَليّ القلقشنديّ (المُتوفى821هـ/1418م): «وبنو حَسن هؤلاء من أهل مكة، والينبع... على مذهب الزّيدية»[74]. وفي مكانٍ آخر، يؤكد على الصلة بين أشراف مكة والأئمة الزيديَّة في اليمن التي أشار إليها في وقتٍ سابقٍ ابن فضل الله العُمريّ[75].

إن ملاحظات القلقشنديّ هي أحدث دليلٍ نصيٍّ على وجود الزيديَّة في مكة. ولم يذكر أيًّا من المصادر المُتاحة لتأريخ مملكة المماليك التي يعرفها هذا الكاتب[76]، سواءً المنشورة منها أو المخطوطة، أي محاولةٍ مِن جانب سلاطين القرن التاسع الهجريّ/الخامس عشر الميلاديّ لقمع الزيديَّة في مكة، كما حدث بشكلٍ متكررٍ خلال القرن السابق. والأكثر أهميَّة من ذلك، أن المؤرخين الثلاثة المولودين في مكة - تقي الدين الفاسيّ (المُتوفى832هـ/1429م)، ونجم الدين عُمر بن فهد (المُتوفى885هـ/1480م)، وعبد العزيز بن عُمر بن فهد (المُتوفى922هـ/1516م) ـ الذي تُقدم سجلاتهم ترجماتهم صورةً حيَّةً ومُفصلةً عن كافة جوانب الحياة في مكة منذ نهاية القرن الثامن الهجريّ/الرابع عشر الميلاديّ حتى ضم العثمانيون الحجاز في 923هـ/1517م ـ لم يذكروا شيئًا عن وجود الزيديَّة في المدينة المُقدسة بعد وفاة الشريف عجلان بن رُميثة في 777هـ/1375م. ونتيجةً لذلك، فمن المحتمل إلى حدٍ كبيرٍ أن يكون قد حدث تراجعٌ ملحوظٌ في دعم الأشراف للزيديَّة ابتداءً من الجزء الأخير من القرن الثامن الهجريّ/الرابع عشر الميلاديّ، الأمر الذي أدى في نهاية المطاف إلى اختفائهم تمامًا، على الأرجح خلال النصف الأول من القرن التاسع الهجريّ/ الخامس عشر الميلاديّ. لذا، يجب تفسير الموقف الإيجابيّ تجاه السُّنَّة، الذي تبناه عجلان بن رُميثة لأول مرة، نذيرًا بالتغييرات العميقة التي كانت كفيلةً بتحويل الانتماء المذهبيّ لبني حَسن في القرن التالي؛ نتيجةً للضغوط العسكريَّة والاقتصاديَّة المتزايدة باستمرار من جانب المماليك الذين احتلوا مكة في النهاية عام 827هـ/1424م.

---

72 أبو بكر احَمد بن مُحَمَّد بن قاضي شهبة، «ذيل تاريخ الإسلام»، مخطوط، القاهرة: دار الكتب المصريَّة، رقم 392 تأريخ، المجلد3، اللوحة161 ب.

73 ابن تغري بردي، المنهل الصافي (القاهرة، 1956)، ص371

74 شهاب الدين أبو العباس أحَمد بن عَلِيّ القلقشنديّ، قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان (القاهرة، 1963م)، ص162؛ والمؤلف نفسه، صُبح الأعشى في صناعة الإنشا (القاهرة، 1910-1920م)، 227/8

75 القلقشنديّ، صُبح الأعشى، 52/5

76 أي الدكتور ريتشارد مورتل صاحب هذه المقالة أقوم بترجمتها. المترجم.

تنعكس نتائج هذا التحول في تراجم أشراف القرن التاسع الهجريّ/الخامس عشر الميلاديّ؛ إذ من خلال الفحص الدقيق للبيانات المقدمة فيها، يُمكن إثبات تسَّنُّن هؤلاء الأشراف بما لا يدع مجالًا للشك. وهكذا، فيُقال إن الشريف حَسن بن عجلان (حكم في الفترة798هـ/1395م-818هـ/1415م؛ 819هـ/1416م-829هـ/1426م) درس الحديث النبويّ على يد عددٍ من علماء السُّنَّة) في مصر والشام، وأجازه بعضهم برواية الحديث[77]. كما قام حَسن بن عجلان ببناء مدرسةٍ بجوار المسجد الحرام، وكان من المفترض أن يكون الحديث والفقه السُّنِّيّ من بين المواد التي كانت تُدرَس فيها[78].

وقد قام حَسن بن عجلان بنقل اهتمامه بدراسة الحديث إلى أبنائه، أبو القاسم وإبراهيم وعَليّ، الذين حصلوا كلهم على إجازاتٍ تسمح لهم برواية الحديث من عددٍ من المُحدثين البارزين في عام 836هـ/1432~1433م[79]. ومن بين هؤلاء الأبناء الثلاثة، ربما كان عَليّ هو عالِم الحديث الأكثر جديَّةً؛ بالإضافة إلى قيامه بدراسة عدة أقسامٍ من صحيح مسلم، فقد قرأ صحيح البخاريّ بالكامل قراءةً عدة مرات[80]. وكلا الصحيحين، بطبيعة الحال، هما العمود الفقريّ للدراسات السُّنِّيَّة في مجال الأحاديث النبويَّة.

وقد تحصل بركات بن حَسن بن عجلان، الذي حكم لمدة ثلاثين عامًا كأميرٍ لمكة (829هـ/1426م-859هـ/1455م) على عدة إجازاتٍ لرواية الحديث النبويّ. علاوةً على ذلك، يُقال إنه قام بتدريس الأحاديث النبويَّة في القاهرة و مكة[81]، حيث كان أحد طلبته، نجم الدين عُمر بن فهد، المؤرخ المستقبليّ للمدينة المُقدسة[82]. ولقد تولى ابن بركات وخليفته، مُحَمَّد (حكم في الفترة859هـ/1455م- 903هـ/1497م) دراسة الحديث في مصر وسُوريَة، وكذلك في الحجاز، وحصل أيضًا على عددٍ من الإجازات من كبار المُحدثين[83]، كما فعل ابنه بركات بن مُحَمَّد (حكم في الفترة903هـ/1497م-931هـ/1525م)[84].

وهكذا، بدءًا من حَسن بن عجلان، بذل شرفاء مكة جهودًا كبيرة لفصل أنفسهم عن المذهب الزيديّ الذي تبناه أسلافهم. ولتحقيق هذه الغاية؛ قاموا بدراسة الأحاديث النبويَّة كما رواها أهل السُّنَّة في القرون الأولى للإسلام دراسةً علميَّةً، حتى أصبح العديد منهم من علماء الحديث المُعترف بهم في التراث السُّنِّيّ في حد ذاته.

---

77 شمس الدين مُحَمَّد بن عبد الرحمن السّخاويّ، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (بيروت، دون تأريخ نشر)، 104/3

78 الفاسيّ، العقد، 71/6

79 نجم الدين عُمر بن مُحَمَّد بن فهد، «الدر الكمين بذيل العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين»، مخطوط، مكتبة جامعة الملك سعود، الرياض، اللوحة 19، 90 ب، 150 أ، 184 أ

80 المصدر السابق، اللوحة 150 أ

81 المصدر السابق، اللوحة 98 أ؛ السّخاويّ، الضوء، 13/3؛ وجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر مُحَمَّد السيوطيّ، نظم العقيان في أعيان الأعيان (نيويورك، 1927م)، ص100

82 نجم الدين عُمر بن مُحَمَّد بن فهد، مُعجم الشيوخ (الرياض، دون تأريخ نشر)، ص ص352-353

83 السّخاوي، الضوء، 151/7-152؛ ومُحَمَّد بن عَليّ الشوكانيّ، البدر الطالع بمحاسن مَن بعد القرن السابع (القاهرة، 1348هـ)، 140/2

84 عبد الملك بن الحُسين العصاميّ، سمط النجوم العواليّ في أنباء الأوائل والتوالي (القاهرة، دون تأريخ نشر)، 280/4-281

قائمة المصادر والمراجع

أ- قائمة المصادر والمراجع باللغة العربيَّة:

- ابن **الأثير**، عز الدين عَليّ بن مُحَمَّد بن الأثير، الكامل في التاريخ (بيروت، 1965-1966م).
- ابن **أبي الفضائل**، المُفضّل، النهج السديد والدر الفريد في ما بعد تاريخ ابن العميد، في Patrologia Orien-talis, vol. 20 (Paris, 1928), pp. 262f..
- ابن **أبي عنبة**، جمال الدين أحَمد بن عَليّ بن أبي عنبة الحَسنيّ، «عُمدة الطالب في أنساب آل أبي طَالب»، في مجموع الرسائل الكاملة (8) في الأنسابَ (الطائف، 1980م).
- ابن **بطوطة**، أبو عبد الله مُحَمَّد بن عبد الله بن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار (بيروت، 1964م).
- ابن **تغري بردي**، جمال الدين أبو المحاسن يُوسف بن تغري بردي، «المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي»، مخطوط، القاهرة: دار الكتب المصريَّة رقم 1113 تأريخ.
- «___»، النجوم الظاهرة في ملوك مصر والقاهرة (القاهرة، ?1972-م).
- **الأزديّ**، جمال الدين عَليّ بن ظافر، أخبار الدول المُنقطعة (القاهرة، 1972م).
- **أيمن** فؤاد السيد، مصادر تاريخ اليمن في العصر الإسلاميّ (القاهرة، 1974م).
- **با قاسي**، عائشة بنت عبد الله، بلاد الحجاز في العصر الأيوبيّ (مكة، 1980م).
- **البغداديّ**، عبد القاهر بن طاهر، الفَرق بين الفرق (بيروت، دون تأريخ نشر).
- **التُجيبيّ**، القاسم بن يُوسف السّبتيّ، مستفاد الرحلة والاغتراب (تونس، 1975م).
- **الجزريّ**، شمس الدين أبو عبد الله مُحَمَّد بن مجد الدين، «تأريخ الجزريّ»، مخطوط، القاهرة: دار الكتب المصريَّة، رقم 995 تأريخ.
- **الجزيريّ**، عبد القادر بن مُحَمَّد الجزيريّ الأنصاريّ، دُرر الفوائد {المنظمة} في أخبار {الحج} وطريق مكة {المعظمة} (القاهرة، 1384هـ).
- ابن **الجوزيّ**، أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزيّ، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (حيدر أباد، 1358هـ).
- **الخزرجيّ**، عَليّ بن الحَسن، العقود اللؤلؤيَّة في تاريخ الدولة الرسوليَّة (القاهرة، 1911-1914م).
- ابن **خلدون**، عبد الرحمن بن مُحَمَّد بن خلدون، كتاب العِبر وديوان المبتدأ والخبر (القاهرة، 1284هـ).
- ابن **خلِكان**، أبو العَباس شمس الدين أحَمد بن مُحَمَّد بن خلِكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان (بيروت، 1968-1972م).
- {**الرذراوريّ**}، أبو شجاع مُحَمَّد بن الحُسين، ذيل تجارب الأمم (القاهرة، 1916م).
- **الزيلعيّ**، أحَمد عُمرو، مكة وعلاقاتها الخارجيَّة (301-487هـ) (الرياض، 1981م).
- **سبط** ابن الجوزيّ، يُوسف بن قِزُغْلي، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان (حيدر أباد، 1952م).

- **السّخاويّ**، شمس الدين مُحَمَّد بن عبد الرحمن، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (بيروت، دون تأريخ نشر).
- **سرور**، مُحَمَّد جمال الدين، سياسة الفاطميين الخارجيَّة (القاهرة، 1976م).
- **السليمان**، عَليّ بن حُسين، العلاقات الحجازيَّة المصريَّة زمن سلاطين المماليك (القاهرة، 1973م).
- **السيوطيّ**، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر مُحَمَّد، نظم العقيان في أعيان الأعيان (نيويورك، 1927م).
- أبو **شامة** المَقدسيّ، شهاب الدين أبو مُحَمَّد عبد الرحمن بن إسماعيل، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (القاهرة، 1287-1288هـ).
- **الشهرستانيّ**، مُحَمَّد بن عبد الكريم، كتاب المِلل والنِحل (القاهرة، 1967م).
- **الشوكانيّ**، مُحَمَّد بن عَليّ، البدر الطالع بمحاسن مَن بعد القرن السابع (القاهرة، 1348هـ).
- **العسقلانيّ**، ابن حجر، أنباء الغمر بأبناء العمر (القاهرة، 1969-1972م).
- «___»، الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة (القاهرة، 1966م).
- **العصاميّ**، عبد الملك بن الحُسين، سمط النجوم العواليّ في أنباء الأوائل والتوالي (القاهرة، دون تأريخ نشر).
- نجم الدين **عُمر** بن مُحَمَّد بن فهد، «إتحاف الورى بأخبار أم القرى»، مخطوط بمكتبة جامعة الملك سعود، الرياض، رقم 1118.
- «___»، «الدر الكمين بذيل العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين»، مخطوط، مكتبة جامعة الملك سعود، الرياض.
- «___»، مُعجم الشيوخ (الرياض، دون تأريخ نشر).
- **العُمريّ**، شهاب الدين أحمد بن يَحي بن فضل لله، التعريف بالمصطلح الشريف (القاهرة، 1312هـ).
- **عنكوي**، عبد الله، أهميَّة أمير الحج المصريّ في تأريخ مكة خلال العصر المملوكيّ، في «الحج إلى مكة في زمن المماليك»، مجلة الدراسات العربيَّة، 1 (1974م)، 146-170.
- **العينيّ**، بدر الدين مُحَمَّد، «عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان»، مخطوط، القاهرة: دار الكتب المصريَّة، رقم 1584 تأريخ.
- **الفاسيّ**، تقي الدين مُحَمَّد بن أحَمد، شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام (القاهرة، 1956م).
- **فايد** حمَّاد عاشور، العلاقات السياسيَّة بين المماليك والمغول، في الدولة المملوكيَّة الثانية (القاهرة، 1976م).
- أبو **الفداء**، الملك المؤيد اسماعيل، المختصر في تاريخ البشر (القاهرة، 1323هـ).
- ابن **قاضي** شهبة، أبو بكر احَمد بن مُحَمَّد بن قاضي شهبة، «ذيل تاريخ الإسلام»، مخطوط، القاهرة: دار الكتب المصريَّة، رقم 392 تأريخ.
- **القلقشنديّ**، شهاب الدين أبو العباس أحَمد بن عَليّ، صُبح الأعشى في صناعة الإنشا (القاهرة، 1910-1920م).
- «___»، قلائد الُجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان (القاهرة، 1963م).
- **القوصيّ**، عطيَّة، تجارة مصر في البحر الأحمر: منذ فجر الإسلام حتى سقوط الخلافة العباسيَّة (القاهرة، 1976م).

- ابن **كثير**، عماد الدين إسماعيل بن كثير، البداية والنهاية في التاريخ (القاهرة، 1351-1358هـ).
- ابن **المجاور**، جمال الدين أبو الفتح يُوسف بن يعقوب بن المجاور، تاريخ المستبصر (ليدن، 1951م).
- **مُحَمَّد** بن عَليّ بن ميسر، أخبار مصر (القاهرة، 1919م).
- **المقريزيّ**، تقي الدين أحَمد بن عَليّ، اتعاظ الحُنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخُلفاء (القاهرة، 1967-1973م).
- **المقريزيّ**، كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك (القاهرة، 1956-1973م).
- **مورتيل**، ريتشارد، الأحوال السياسية والاقتصاد بمكة في عصر المماليك (الرياض، 1985م).
- «___»، «أنساب أشراف مكة الحَسنيين»، مجلة كليَّة الآداب، جامعة الملك سعود، المجلد12، العدد2 (1985م)، 221-250.
- «___»، «مصادر التأميم الغذائيّ لإمارة مكة»، في مجلة كليَّة الآداب، جامعة الملك سعود، المجلد12، العدد1 (1985م)، ص193-219.
- **النويريّ**، شهاب الدين أحَمد بن عبد الوهاب، «عِقد الجُمان في فنون الأدب». مخطوط، القاهرة: دار الكتب المصريَّة، رقم 549 معارف عامة.
- **الهمدانيّ**، حُسين، الصليحيون والحركة الفاطميَّة في اليمن (القاهرة، 1955م).

ب- قائمة المراجع باللغة الأجنبية:

- "The Saljuq and Mongol Periods," in The Ambridge History of Islam (Cambridge, 1968), vol. 5, pp. 402, 543-544
- **Donald** P. Little, "The History of Arabia During the Baḥrī Mamlūk Period According to Three Mamluk Historians," in Abdulgadir M. Abdalla, Sarni al-Sakkar, and Richard T. Mortel, eds., Studies in the History of Arabia, Vol. I, Part 2: Sources for the History of Arabia (Riyad, 1979), p. 216
- Encyclopaedia of Islam, 1st.
- **Howorth**, Sir Henry, History of the Mongols (London, 1876-1888).
- **Jomier**, Jacques, Le Mahmal, Bulletin de l'lnstitut Fran ais d'Archeologie Orientale, Recherches d'Archeologie, de Philologie et d'Histoire (Cairo, 1953), vol. 20, p. 45
- **Kohlberg**, E., "Some Zaydi Views on the Companions of the Prophet," Bulletin of the School of Oriental and African Studies, 39 (1976), 94-97
- **Spuler.** Bertold , Die Mangolen in Iran (Berlin, 1968), pp. 190-191

Mominoun
MominounWithoutBorders
@ Mominoun_sm

info@mominoun.com
www.mominoun.com

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com